حكاياتي مع الخوف..
من زوايا الغُرَف والذاكرة

بقلم : حوا (اسم وهمي)

تحذير: تحتوي هذه القصة على تفاصيل عن التعذيب

كان العام ٢٠١٦ مفصليًّاً في حياتي.. ففي لحظة واحدة، انقلب كل شيء رأساً على عَقِب.. كانت تلك لحظة اعتقالي من قبل أجهزة أمن النظام السوري.

قبل العام ٢٠١٦ ليس كما بعده.. كنت فتاة قوية، سعيدة، أعتَدُّ بإنجازاتي وقدرتي على تحقيق ذاتي.

تزوجتُ خلال دراستي الجامعية، وحصلتُ على عمل، وأنجبت إبني الأول.

وعندما تخرَّجت من الجامعة، كانت الثورة قد بدأت في سوريا.

شارك زوجي وإخوته وأقاربه مباشرة في التظاهرات والاعتصامات، على الرغم من أننا كنا نسكن في منطقة مؤيدة بشكل شبه كامل للنظام. وعندما ألقى بشار الأسد أول كلمة له بعد بدء الثورة، عمَّ التوتر، وأُحيطت الشوارع والحارات في منطقتنا بأشخاص مسلَّحين تابعين للنظام، لم نعرف آنذاك، إن كانوا شرطة؟ رجال أمن؟ أم شبيحة؟ على كلٍّ، فقد كانت تلك الساعة أول العلامات المخيفة، الكفيلة بإنذارنا بالخطر القادم إلينا.

بدأت المشاهد المرعبة تتالى، نُصبت الحواجز، واعتُقل المدنيون منها. وبعد هجوم الشبيحة بالنيران على التظاهرات أو الاعتصامات، كانت الجثث تتكوَّم في الشوارع، لتأتي بعد ذلك الـ"تركسات" لترفعها وكأنها تلمُّ القمامة.

سرعان ما صار زوجي مطلوباً، و"إرهابياً" حسب رأي النظام.

أما أنا فقد كنت "زوجة إرهابي" بنظرهم، ثم صرت "زوجة إرهابي فارٍّ" بعد سفره إلى تركيا، فلم أستطع اللحاق به، بسبب إصدار تعميم بمنعي من السفر من سوريا.

لكن زوجي عاد، واستعدتُ تهمتي الأولى؛ "زوجة إرهابي".

بعد أسابيع قليلة من عودته، اعتُقل زوجي بكمين.

وصلتنا أخبار بعد وقت ليس بقليل، أن هناك من رآه في سجن صيدنايا. في هذا السجن، كان يُسمح لنا بزيارته مرة واحدة فقط كل ثلاثة أشهر.

لم يكن زوجي قد رأى ابنتنا التي أنجبتُها بعد اعتقاله بستة أيام، اصطحبتها معي إلى الزيارة، ولم أشأ لابني أن يرى والده في السجن.

سجن صيدنايا أشبه بمعسكر معزول عن العالم الخارجي. بمجرد أن ندخل إليه تُوجَّه الإهانات لنا.. نصعد إلى باص مهترئ يستغرق الطريق فيه ٢٠ دقيقة قبل أن نصل إلى المجمَّعات، ثم نقف في طابور طويل منتظرين بحُرقة إذاعة أسماء أحبَّائنا.

أسمع أحداً يناديني باسمي، أجول بعينيَّ سريعاً على كل من أراه، ولا أجد زوجي.

لم أميِّزه في البداية عن العسكريَّيْن اللذين كانا على جانبيه، صار يشبهُهُم.. نحيل، حليق الرأس، صغير الحجم بملامح مهزومة وبائسة، يختلف عنهم فقط بارتداء ملابس السجناء.

أمامي ثلاث دقائق فقط، ينبغي عليَّ ألّا أضيع ثانية منها بالبكاء.. يفصلني متر عنه. تُبعدني نظرات العساكر إليَّ خطوات إلى الوراء، وتُغلِق فمي.

لم أعرف ماذا أقول له، لكنني شعرت حينها أنه سيلقى المصير ذاته، الذي لحق بابن خاله المعتقل منذ الثمانينيات ولم يَعُد.

كان هناك معتقلون من أغلب المحافظات، بينهم يأتون بوجوه مُدمّاة، آخرون محمولين يجرُّهم العساكر إلى مكان اللقاء. سمعنا تلك الشائعة من قبل لكنني كنت أظنها مبالغة، فالمعتقلون في سجن صيدنايا، يُضربون قبل وبعد لقاء أهلهم في الزيارة حقاً، لذا، كان كثير منهم يتوسَّلون أهلهم لألّا يأتوا لرؤيتهم.

قضى زوجي نحو عام في صيدنايا، ثم نُقل إلى سجن عدرا، وبعده إلى سجن السويداء.

* * *

منزل عائلتي الذي عُدت لأعيش فيه مع أولادي عُقب اعتقال زوجي، كان على خط التَّماس بين جبهة النصرة وقوات النظام، امتلأ الشارع بالشبيحة والقناصة وآثار الدمار.

كنت أذهب إلى عملي كل يوم، قد أضطر للعودة مشياً على الأقدام إن كانت الطرقات مغلقة.. أو أغامر بالمرور من طريق يرصده قناص يصطاد أي رأس في مرمى بندقيته.. أو بقذيفة قد تقتلني، أو تنفجر قربي.

تنهمر القذائف على أسطح المباني المنصوبة عليها براميل المازوت المُخزَّنة للشتاء، تنفجر البراميل وتشتعل أسطح الأبنية، فنكسر خزانات المياه من أجل أن نطفئ الحرائق.

نبقى دون مياه، ودون وقود للتدفئة.

وجودنا داخل المنزل كان مغامرة أيضاً.. هي لحظة واحدة تفصل بين الهدوء التام، ودويٍّ انفجار سيارة مفخخة يُخلِّف زجاجاً مكسراً على أسرِّتنا، وخِزَانات مقلوبة فوق رؤسنا.

لكننا، ومع مرور الوقت، اعتدنا على طقوس الحرب تلك.. نَصَبْنا شوادر تحمينا من نيران القناصة وتَعلَّمنا كيف نركض لتفادي رصاصهم. كما أننا تآلفنا مع القصف الذي قد يمتد طوال ساعات الليل.

سلّمنا لحقيقة أننا إنْ لم نمُت، فإن شروق الشمس في الصباح سيمنحُنا يوماً آخر.

نخرج نحن إلى أعمالنا، والأطفال إلى مدارسهم، حتى العصافير تتناسى ما سمعت من أصوات مرعبة في الليل، وتبدأ الزقزقة صباحاً لتعلن عن بدء يوم جديد، وهدنة قصيرة جداً مع الموت.. كان علينا أن نعيش قدرَ ما أمكننا!.

حتى ذلك الوقت، كان أخي قد اعتُقل ثلاث مرات.

وفي كل مرة يخرج، يحكي لي بالتفصيل عن وسائل التعذيب أثناء التحقيق في الفروع الأمنية، حتى صارت عندي معلومات كافية عن كيفية تجاوز مرحلة الاستجواب دون أن أعترف بشيء أو يثبتوا عليَّ أية تهمة، تعلمتُ طرقاً مبتكرة لحماية جسدي من الضرب. وبالفعل، كانت تلك المعلومات مُجدية، فقد اعتُقلتُ أنا أيضاً.

كان الوقت مساء، في الساعة الثامنة تحديداً، طُرق باب منزلنا..

إنهم رجال أمن.

- أين أخوكِ؟

- مسافر، إنه في تركيا

- أين والدك؟

ارتدى والدي ثياباً بألوان غامقة، وحذاء مريحاً، قالوا إنه ذاهب ليجيب على بضعة أسئلة ويعود سريعاً. ثم استدرك:

- أين زوجك؟ أعطني دفتر العائلة.

ذهب والدي معهم، أغلقنا الباب، جلست أمي على الأرض، بكت وقالت لي: هذا الذي لم أكن أتوقعه أبداً!.

بعد ١٠ دقائق، عادوا ليأخذوني، قالوا إنني أيضاً سأعود سريعاً.. انهارت أمي، توسَّلتهم أن يأخذوها هي بدلاً عني.

كان الظلام حالكاً في الخارج، مشيتُ خطوات قليلة، ثم التفتت إلى الوراء، رأيت أولادي يراقبونني من شرفة المنزل وأنا ذاهبة مع العساكر.

فكَّرت.. هل سيغتصبونني؟ سيسرقون أعضائي؟ هل سأرى أطفالي مرة أخرى؟

دخلنا إلى مبنى المخابرات الجوية، والدي يقف مقيَّداً قرب الحائط بوجهٍ أحمر.

يبدو أنهم بدأوا بضربه فور وصوله.

كان أخي هنا، خرج من هذا المكان بوجه أزرق وأخضر.. هنا حرقوا ظهره بالسجائر، اقتلعوا أظافره، ضربوه على "الدولاب"، وعلَّقوه مُقيَّداً لساعات طويلة.

أخذوني إلى غرفة الضابط، سألني عن زوجي وعائلته، وعن أخي. حاول أن يفتح هاتفي، لم يجد شيئاً، ضربني على وجهي، وعلى الفور، وُجِّهت لي أول تهمة في هذا الفرع،

"جاسوسة".

في ممر طويل، ألقونا أنا ووالدي على الأرض جنباً إلى جنب، ضربونا "فلقة"، ثم علقوني عند الحائط وربطوا يَدَيْ، أما والدي، فقد انهار وهم يحاولون تعليقه، قال أحد العساكر وهو يواصل ضربه على رأسه: لقد مات.

قال الآخر: إرمه خارجاً بين الجثث.

كنت مصدومة مما يحدث، لم أعد قادرة على الكلام، بدأت أتذكر الأساليب التي تعلَّمتها من أخي خلال وجوده في الأفرع الأمنية، ثم غبتُ عن الوعي.

فتحتُ عيني المتورِّمتين من الضرب، لم أجد أبي، سمعت صوت زقزقة العصافير في الخارج، قدَّرتُ أن الساعة هي الخامسة أو السادسة صباحاً، صارت أصوات العصافير طريقتي الجديدة في تحديد الوقت، والإيذان ببدء يوم آخر وساعاتٍ أخرى من التعذيب.

ثلاثة أيام كاملة، كانت كما الجحيم، أجلس مطمَّشة على الأرض، وهم يحاولون بكلام بذيء انتزاع أية معلومة مني. أنا لم أكن أعرف شيئاً، ولا أمتلك أية معلومات قد تهمُّهم.

لم أرَ من كان يضربني خلال التحقيق، رأيت من تحت الطمَّاشة فقط قدمه بالحذاء العسكري وهي ترتفع عن الأرض وتضرب رأسي وظهري، رأيت أيضاً حذاء المرحاض الذي كانوا يضعونه في فمي.

قضيت ساعات في غرفة "الدولاب"، ضربوني أمام والدي، كان ألماً لا يوصف، لكنني قررت أن أكون قوية، وتذكرت كلام أخي عن طرق تفادي الضربات الأكثر إيلاماً على الدولاب.

بعد جولات التعذيب، يتولَّد لدي شعور بعدم الإحساس بجسدي، أفقد السيطرة على كل شيء، ولا أستطيع المشي. لكنهم لم يستطيعوا انتزاع أية اعترافات مني، حقيقية كانت أم مزيَّفة، بل صاروا يصفونني بـ"الصغيرة المثقفة ذات الأجوبة المنمَّقة"، لأنني كنت أعرف تماماً كيف أجيب على أسئلتهم دون أن يثبتوا علي أية تهمة.

سألوني عن ابن عمتي. لم أكن أعرف شيئاً عن أي نشاط له ضد النظام، لكنني أذكر أنه كان جريئاً في منشوراته التي يكتبها على مواقع التواصل الاجتماعي.

طلبوا مني أن أدلَّهم على منزله، خرجنا من الفرع، أمسكني عسكري من يميني وآخر من يساري، كانا يجرَّانني على الأرض لعدم قدرتي على المشي، ثم وضعوني في السيارة.

وصلنا إلى حارة منزله، كان ابن عمتي آتياً من بعيد هو وزوجته باتجاهنا، أخذوه ووضعوه في السيارة إلى جانبي. لم يعرفني في البداية بسبب التشوهات في وجهي، وعندما عرَّفته بنفسي، أمرنا العساكر بالتزام الصمت، وعدنا إلى الفرع.

علقوني عند الحائط، أما ابن عمتي فقد كان طويلاً جداً..

- سيدي هاد بييجي طولو مترين.. شلون ما علّقناه عم يضلوا رجليه واصلين للأرض!

ضحكنا كثيراً! ثم بدأوا بضربنا.

في الليل، كانوا يعيدونني إلى غرفة ضيقة ومتسخة مع ثلاث فتيات أخريات. يتوسَّط السقف ضوء بلون أصفر مشؤوم، يُتعب عيني ويُظهِر لي ألوان الكدمات الزرقاء

والخضراء على جسدي، دون أن يجعل من الغرفة أقل ظُلمة.

أتذكر ابنتي التي كانت لا تنام دون أن تلف خصلات شعري على أصابعها.

أتذكر قلق والدتي وساعات بكائها الطويلة على أخي عندما كان معتقلاً، لن أستطيع معرفة ماهية شعورها الآن وقد اعتُقلنا أنا ووالدي أيضاً، لا أعرف إن كانت الحياة تقسو علينا نحن المعتقلون أكثر، أم عليها هي.

أجلس في زاوية الغرفة، أضم ما استطعت من جسدي كالجنين في رحم أمه، أبكي وأخشى مما سيفعلونه بي في الغد، وكأنّ ساعات النهار مخصصة للتعذيب الجسدي، وساعات الليل للعذاب النفسي.

حجابي الذي وقع عن رأسي مرة خلال التحقيق، أعادوه لي بعد أن وضعوه في مياه المرحاض المتَّسخة.

تعرضت لجلسات التعذيب بالكهرباء..

قال لي المحقق:

- ما بدك تحكي؟.. لسه لفرجيكي نجوم الظهر.

أقسمت له بأنني لا أعرف شيئاً.. قلت له إن الضرب لن يفيده حتى لو استمر بتعذيبي إلى ما لا نهاية.

قال:

- أين هذا الله الذي تُقسمين وتستنجدين به؟ إن كان موجوداً فلن أستطيع صعقك الكهرباء.

فشلَت محاولاته في البداية..

لفَّ الأشرطة على يدي وقدمي وحاول صعقي، وفي كل مرة كان مفتاح الكهرباء ينزل، وتنقطع الطاقة عن الفرع كله، جُنَّ جنونُه، ثم استعان بشخص ليمسك مفتاح الكهرباء، وبدأ بصعقي.

احترقت أظافري واسودَّت وفقدتُ الوعي، وعندما صحوت، توعَّدوني بأشكال تعذيب أقسى.

عدت إلى الغرفة، قلت للفتيات إنني كنت أصعق بالكهرباء، لم يصدقنني في البداية، أريتهم أظافري المحروقة، نظروا إليَّ مذهولات من الخوف، ومن القوة التي بدت على ملامحي. حاولت تهوين الأمر عليهم، قلت لهم إن الصعق بالكهرباء يرفع من معدل الذكاء، ضحكت الفتيات بدموع في عيونهن.

في اليوم الثامن، خرجت من هذا الفرع، وبدأتْ رحلة تنقُّلي بين أفرع أمنية أخرى ومخافر.

صعدنا إلى الباص، وجدت والدي جالساً في الكرسي الأخير بزاوية الباص، لم أستطع التحدث إليه، إنما كانت تكفيني معرفة أنه ما يزال على قيد الحياة.

كان أبي يئنُّ من الألم، وأنا أراقبه وأبكي.. يقول له الضابط الذي يرافقنا: "خراس"، ثم يأتي ويضرب رأسي بزجاج نافذة الباص ويقول لي: "خلي أجوبتك تنفعك يا مثقفة!".

في الأفرع كانت الغرف ضيقة ومتسخة، والضوء فيها باللون الأصفر، لكن كان هناك شباك معدني صغير أتمكن من خلاله رؤية ضوء النهار ولون الغيوم البيضاء خارجاً. عاملتنا السجَّانات بقرف، ونعتْنَنا بأشنع الألفاظ وأعيَبِها. كنا نسمع أصوات بكاء

أطفال رُضَّع من الغرف المجاورة، ونقرأ على الجدران عبارات كتبَتْها نسوة منذ العام ٢٠١٢، بعض منهن ما يزلْن في الفرع ذاته.

كان هذا نذير شؤم بأننا لن نخرج من هنا قريباً.

بعد خمسة و عشرين يوماً من لحظة اعتقالي.. انتهى بي المطاف في سجن عدرا للنساء.

في عدرا اختلطتْ مشاعري، وبدأتُ ببكاء هستيري فور دخولي للمهجع، لم أعرف إن كان علي أن أفرح، لأنني وصلت أخيراً إلى سجن مدني فيه شبابيك أوسع يدخل منها ضوء النهار الأبيض، وتخلصت من التعذيب في الأفرع الأمنية، أم أن أحزن للحال الذي وصلت إليه، في سجن لا أعرف متى قد أخرج منه.

هنا نسوة من مختلف محافظات سوريا، بينهنَّ حوامل من اغتصاب في الأفرع، ليس لدي سرير أنام فيه، وأعيش مع نسوة غريبات عني.

اتصلت بأختي فأخبرتني أن والدي بخير، وأن أمي في طريقها لزيارته في سجن عدرا للرجال، وأنها بالتأكيد ستأتي لزيارتي أيضاً.

اتصلت بزوجي إلى سجنه، شدَّ من أزري وشجعني، وقال إننا أصبحنا شريكين في تجربة السجن أيضاً.

في اليوم التالي، استيقظت على أصوات شجارات النسوة في المهجع، أسمع اتهامات بالسرقة لبعضهن البعض، وعبارات مثل، "أين مصفف الشعر؟ أين الجبنة؟ أين المكياج!".

جلست في زاوية الغرفة، ضممت جسدي إليَّ، منتظرة أمي.

أُذيعت أسماء الموقوفات، جاء جميع الزوار، انتهى وقت الزيارات، ولم تأت أمي.

ثم فجأة، أذاعوا اسمي.

شعرت أن الطريق من مهجعي إلى المكان المخصص للزيارات أطول من الفترة التي قضيتها بعيدة عن عائلتي.. أمشي مسرعة وأنا أعرُج من آلام قدمَي، أبحث بعيوني المتورِّمة عن وجه والدتي.

ركضت باتجاهها، ضمَّتني وبكينا كثيراً.

على الرغم من أن الزيارات كنت مسموحة للموقوفين بين سجنَي عدرا للنساء والرجال، لكنني لم أتجرَّأ على تقديم طلب بزيارة والدي في سجنه، كنت قد رأيته في الفرع، وفي الباص، تعرضنا للضرب سويَّة، لكنني لم أستطع أن أقابله في عدرا، ربما فضّلت أن أحتفظ بما تبقى صورته في ذاكرتي قبل أن يحدث لنا كل هذا، ولم أشأ أن أرى أي علامة للهزيمة في عينيه. أو ربما كانت أحاسيسي قد تجلَّدت، بسبب مادة الـ"كافور" المثبطة للرغبة الجنسية التي يدسُّونها في طعامنا وشرابنا في الأفرع والسجون.. حتى أولادي عندما كنت أتذكرهم، كانوا يرتسمون في مخيِّلتي كصور فقط، دون أن أستطيع تذكر حركاتهم أو كلماتهم أو تفاصيل أيامنا الماضية.

في عدرا ملأنا ساعاتنا بالانتظار، انتظار وجبة الطعام، الزيارة، دور الهاتف، وانتظار لحظة هدوء بعيداً عن الضوضاء، لحظة قد تمكنني من سماع صوت عصفور قريب من الغرفة.

وبعد ١٥ يوماً، وقَّعتُ على ورقة إخلاء السبيل.

أثناء خروجي من مبنى السجن، قال لي الموظف: "تفضَّلي مدام"، الموظف ذاتُه الذي نعَتَني بـ"الكلبة" في أول يوم لي هناك. لم أعرف ما الذي جعلني بشراً الآن في نظره.

لكنني حينها فقط، صدقتُ أنني خارج السجن بالفعل.

في طريق عودتي إلى منزلي، بقي الخوف يلازمني، خشيت من أي شيء قد يمنعني من رؤية أولادي، وبقيَت أصوات النسوة في السجن عالقة في رأسي.

نزلت من السيارة، وجدت الجميع ينتظرني، أولادي وأمي وأختي، أصدقائي، زملائي في العمل، عندما رآني مديري أشاحَ بوجهه إلى الخلف باكياً، نظراتُهم إلي كانت مُتألمة، لكنها كانت تؤلمني أكثر.

خرج والدي من السجن أيضاً، عدنا إلى حياتنا السابقة، تمسَّكنا بالبقاء في سوريا، مع الكثير من الحذر، والخوف من أن نكون مطلوبين لأفرع أمنية أخرى.

حاولتُ تجاوز كل ما حدث لي في الفترة السابقة، لكن وجه والدي وملامحه كانت مختلفة، لم يعد هو أبي ذاته.

سألَنا أنا وأختي ذات مرة، "من أنتن؟!".

فقد أبي ذاكرته بالكامل، ولم تعد لديه القدرة على المشي، أو حتى رفع يده.

قال الأطباء إنه تلقى ضربة قوية على رأسه أسفرت عن نزيف دماغي. أجروا له عملاً جراحياً في رأسه، ثم بدأ يعود لطبيعته.

عندما أستقل الباص في طريقي إلى عملي، كنت أنزل منه قبل أن يصل إلى الحاجز، خائفة من أن يطلب العسكري هويتي، أقطع الحاجز مشياً على الأقدام، ثم أستقلُّ باصاً آخر.

بقيت على هذه الحال حوالي خمسة أشهر، حتى صعدنا إلى الباص ذات مرة أنا وابني، وصعد عسكري إلى الباص، طلب هويتي، اصفرَّ وجه ابني من الخوف، بقي يرتعش حتى بعد نزولنا من الباص.

كان الخوف في عينيه كفيلاً بأن أتخذ قراراً بالهروب من سوريا، دون رجعة قريبة.

قضينا ثلاثة أشهر على الحدود السورية شمالاً، تضمنت ست محاولات فاشلة للوصول تهريباً إلى تركيا. نمنا أنا وأولادي في منازل غرباء، صعدنا جبالاً في ساعات الليل المظلمة، رمينا أغراضنا، مشينا كيلومترات على أقدامنا، احتجزتنا الجندرما التركية، بقينا في خيام دون طعام أو شراب، تنقلنا من قرية إلى أخرى، ظهرت تقرُّحات على وجوهنا، واسمرَّت بشرتنا.

طوال الأشهر الثلاثة كنت أتعجَّب من قوة أطفالي، من الصبر الذي كانا يبديانه، لكن عندما نجحنا بالدخول إلى الأراضي التركية في المحاولة السابعة،و واجهنا حقيقة أننا قد لا نعود إلى سوريا التي صارت خلفنا، بكينا نحن الثلاثة كما لم نبكِ من قبل .

قبل حوالي عام، خرج زوجي من السجن، طلب مني العودة إلى سوريا، رفضت، فتزوج امرأة غيري هناك.

هنا في تركيا، أنا كاليتيمة، ليس لي أحد يعتني بي إذا مرضت، أشعر أنني منبوذة، وأنني من فئة أدنى من البشر.

أخشى من الفراغ، من التفكير، من الذكرى الأليمة، من أن يموت أحد من أهلي قبل أن أراه، من أن يخرجني صاحب المنزل الذي أستأجره، من أن أصير عبئاً على أحد.

طوال السنوات الماضية، ورغم كل الألم الذي واجهته، كنت أشعر أن خلايا جسدي تُعيد بناء نفسها بنفسها.. لكنني في تركيا لا أشعر بالراحة، سوى وأنا أراقب المطر من نافذة منزلي، أجلس في زاوية الغرفة وأضمُّ ما استطعت من جسدي بيدي كالجنين في رحم أمه، أتذكر المطر ورائحته في سوريا، أتخيل أنني ما زلت هناك.. يتلاشى الخوف، وأشعر لدقائق قليلة أنني بأمان.

رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison